بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ولصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه

ملخص بحث:

مستقبل التكتلات الإقليمية داخل منظمة التعاون الإسلامي

في ضوء التحولات التي تعرفها بعض دول المنظمة

(حالة اتحاد المغرب العربي)

إعداد: د. محمد محمود الصديق

مدير المركز الموريتاني للدراسات والبحوث الاستراتيجية

mmsidugh@gmail.com

تقديم:

ظل حلم الوحدة والاندماج، وهدفُ التكامل والتعاون: أملا يراود الشعوب الإسلامية من المحيط إلى المحيط. ورغم المعوقات الكثيرة التي تعترض تحقق هذا الأمل، إلا أن ذلك لم يحل دون تحقيق بعض أجزائه ومفرداته. ولعل حالة أو ظاهرة التكتلات الإقليمية بين بعض الدول الإسلامية – فضلا عن منظمة التعاون الإسلامي ذاتِها– من أبرز ما يمثل هذا التجسد المتدرج.

وهكذا، نشأت عدت تكتلات إقليمية داخل الخيمة الجامعة (منظمةِ التعاون الإسلامي)، تعددت أسماؤها، وتنوعت أهدافها، وتفاوت مستوى أدائها وفاعليتها.. وبعد مرور وقت غير قليل على نشوء هذه التكتلات، ومع قلة الدراسات العميقة التي سُلطت عليها من هذه الزاوية، (زاويةِ كونها تمثل أنوية ومحطات في طريق تحقيق هدف التكامل والتعاون الجامع بين الدول الإسلامية)، ومع هبوب رياح التغيير والتحول على كثير من البلدان الإسلامية التي يَنتظم جزء منها في بعض هذه التكتلات: يكون من الوارد جدا تسليط الضوء عليها: تقويما لواقعها، واستشرافا لمستقبلها، واستحثاثا لروح التكامل والاندماج الكامنة فيها.

ومن هنا رأينا أنه من المفيد في مثل هذه المناسبة الجامعة تسليط الضوء على مستقبل هذه التكتلات عموما، وعلى اتحاد المغرب العربي خصوصا (مَهدِ التحولات السياسية الجارية).

تساؤلات الدراسة وفروضها:

تنطلق هذه الورقة من "**مسلمة**" أن التعاون فالتكاملَ فالاندماجَ الشامل: هي الأهداف الكلية التي تطمح إليها شعوب العالم الإسلامي عبر منظمة التعاون الإسلامي وما يتفرع عنها من منظمات إقليمية، وأن نتيجة هذا التكامل والتعاون – إن هو سار في الاتجاه الصحيح– هو مزيد من التقدم، ومن القدرة على المنافسة الدولية في جميع الميادين.

وفي ضوء هذه المسلمة يمكن أن نُصدِّر هذه الدراسة بالأسئلة التالية:

- ما أهمية ودور التكتلات الإقليمية داخل منظمة التعاون الإسلامي، وما ذا حققت وأنجزت؟

- وهل ظاهرة التكتلات الإقليمية – بالنظر العام– هي ظاهرة محمودة توفر من أسباب التعاون والتكامل بين الدول الإسلامية ما لا تستطيعه مجتمعة، وبالتالي ينبغي تعزيزها وتشجيعها، أم هي نوع من التجزؤ والتشرذم الذي يضعف الفكرة الجامعة ويؤثر عليها؟
- ثم ما هو مستقبل هذه التكتلات في ظل التحولات التي تعرفها بعض دول المنظمة؟ وخصوصا منطقة المغرب العربي (مهدِ التحولات الجارية).
- وهل سيكون من نتائج هذه التحولات والتغييرات بناء اتحاد مغاربي متآزر ومتكاتف، على نحو يكون فيه قدوة وأسوة لما سواه من التكتلات داخل العالم الإسلامي؟
- أو بتعبير آخر: هل نتوقع أنه سيكون من النتائج الإيجابية للتحولات الجارية في بعض بلدان العالم الإسلامي تقوية بناء الصرح الإسلامي الجامع وإعادة بث الروح فيه؟

هذا ما نحاول الإجابة عليه ومناقشة ما حوله من حيثيات في هذه الورقة، وذلك عبر المنهجية المحتوى التالي:

المحور الأول:

نظرة عامة على التكتلات الإقليمية داخل منظمة التعاون الإسلامية

في الآونة الأخيرة تعددت أوصاف المرحلة الراهنة من تاريخ لعالم؛ فأُطلِقت على هذا الزمان أسماء: عصر التكتلات الاقتصادية، عصر الاتصالات، عصر العولمة.. وغيرُها من الأوصاف التي توحي بأن العالم يتجه نحو الاندماج في شكل مجموعات تربطها مصالح مختلفة، عُرفت بالتكتلات الإقليمية.

ومما تُعرَّف به المنظمات أو التكتلات الإقليمية أنها: تجمعات إقليمية تضم مجموعة من الدول المتجاورة, تعمل على حفظ السِّلم والأمن الدوليين, ودعمِ التعاون في ما بينها في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.. على هديٍ من أهداف الأمم المتحدة ومبادئها، وبتنسيق معها.

وغالبا ما يتم تشكيل المنظمات الإقليمية من الدول التي تربط بينها روابط مشتركة؛ كالتجاور الجغرافي، والتقارب الإيديولوجي أو المذهبي، والاشتراك التاريخي، والاتحاد العنصري (القومي)، أو اللغوي أو الديني.. ومن أهم مقاصد التكتلات الإقليمية: تحقيق التضامن السياسي، والتكامل الاقتصادي، والتلاقي الثقافي بين الدول المجتمعة.

وفي العالم الإسلامي اليوم يوجد ما يربوا على ثمانية تكتلات إقليمية مشهورة، نذكر منها على سبيل المثال: اتحاد دول جنوب شرق آسيا المعروف اختصار بـ(**ASEAN**)، المجموعة لاقتصادية لدول غرب إفريقيا (**ECOWAS**)، مجموعة الدول الثمانية الإسلامية الكبرى (**D-8**)، تجمع دول الساحل والصحراء (س. ص)، مجلس التعاون الخليجي، واتحاد المغرب العربي.. هذا فضلا عن المنظمتين الكبيرتين (جامعة الدول العربية، والاتحاد الإفريقي الذي يعتبر بحكم أن غالبية دوله مسلمة منظمةً إسلامية)؛ وفضلا أيضا عن مشاريع ودعوات لتكتلات إقليمية جديدة، كتكتل "الغرب الإسلامي" (اتحاد المغرب العربي + مصر) الذي يدعو إليه البعض إحياء لدور هذا الحيز الإقليمي الذي كان كتلة واحدة عبر تاريخ الدولة الإسلامية الغابر.

ولا شك أن هذه الطفرة – إن جاز التعبير– في التكتلات الإقليمية بين الدول لإسلامية يمكن أن تدل دلالتين متعارضين:

- فقد تكون دليلا على اتقاد روح التعاون بين الدول الإسلامية، وسعيِها الحثيث إلى تحقيق ما أمكن من أشكال التكامل والتعاون فيما بينها، وبالتالي فإن هذه التكتلات تعتبر خادمة

وخطوة إلى التكتل الجامع بين كل الدول الإسلامية تحت مظلة (منظمة التعاون الإسلامي).

- كما أنه قد يفسَّر في نفس الوقت على أنه نوع من العجز والفشل في مشروع الوحدة الإسلامية الجامعة، ومن ثمة اللجوء إلى هذه التكتلات الجزئية و"ردم الرأس فيها" على طريقة النعامة، في المثل العربي السائر. مما يؤشر – "بدلالة المخالفة"– على فشل، أو على الأقل تعثر مشروع "الوحدة الإسلامية الجامعة".

وبغض النظر عن أي من الاحتمالين أو التفسيرين الساقين هو الأصح، فإن مما لاشك فيه أن هذه التكتلات استطاعت أن تفعل وتنجز على الصعيدين الإقليمي والدولي ما لم ينجزه التكتل الأم، (منظمة التعاون الإسلامي)؛ غير أنه مما لاشك فيه أيضا أن أداء هذه التكتلات – على تفاوت بينها– ظل دون المستوى المرغوب، إن لم يكن بالنسبة لبعضها باهة وهزيلا. هذا رغم ما يتوافر لبعضها من مقومات ودواعي التكتل الحق؛ بل الاندماج، كما هو شأن مجلس التعاون الخليجي، واتحاد المغرب العربي.

ولعل غياب الإرادة السياسية، واستحكام الاستبداد، وتجذر ثقافة "الدولة القُطْرية"، بل "دولة الأسرة، أو الطائفة، أو الحزب الواحد" في كثير من دول العالم الإسلامي، وخصوصا العربي: هي من أقوى الأسباب التي تقف وراء ضعف التكتلات التي قامت حتى الآن في العالم الإسلامي، وخصوصا العربي. بما في ذلك التكتل الأم الذي نجتمع تحت مظلته (منظمة التعاون الإسلامي).

غير أن ما تمر به المنطقة من تغييرات وتحولات، يُرجِّح أن هذه التكتلات ستتجه – رغبة منها أو رهبة– إلى مزيد من التقارب والتكامل في ما بين أعضائها، لعدة مبررات يأتي تفصيلها لاحقا. وذلك في أفق الوحدة الإسلامية الجامعة.

المحور الثاني:

مستقبل اتحاد المغرب العربي في ضوء التحولات التي تمر بها بلدانه

قد يكون من نافلة القول إن بناء اتحاد المغرب العربي يمثل خيارا استراتيجيا لشعوبه؛ بحكم تجاورها وثقافتها وتاريخها المشترك.. ولأن القوى الاقتصادية التي يمكنها مواجهة التكتلات الكبرى والصمود في المستقبل أمام زحف العولمة هي المجموعات الاقتصادية والسياسية الكبرى، التي ترتبط فيما بينها باتفاقيات مشتركة للتعاون السياسي والتكامل الاقتصادي.

ولا شك أن بلدان المغرب العربي الخمس تتمتع بمؤهلات اقتصادية وبشرية تؤهلها – إذا ما تكتلت في إطار إقليمي واحد– للاندماج في الاقتصاد العالمي والحصول على وزن اقتصادي وسياسي في العلاقات الدولية، وأن تصبح شريكا فعالا لمختلف التكتلات الإقليمية العالمية.

وإن مرور اثنتين وعشرين عاما على الإعلان عن قيام اتحاد المغرب العربي يعد فترة كافية لساسة دول المغرب العربي وقادة الرأي فيها، لإعادة النظر في واقع هذا الاتحاد وما آل إليه. ومع الأسف فإن الحصيلة السياسية والاقتصادية لهذا الاتحاد على امتداد تاريخه لا تتماشى مع أهدافه المعلنة؛ بل إنها تعتبر حصيلة هزيلة لا ترقى إلى طموحات شعوب المنطقة، ولا تلبي حلم زعماء حركة التحرير الوطني الذي كانوا يحلمون به.

بل إنه يمكن الجزم بأن قطار هذا الاتحاد لم ينطلق من محطة البداية، أحرى أن يصل إلى منتصف الطريق، أو يشارف بلوغ الأهداف المرجوة؛ بل ربما يكون قطار اتحاد المغرب العربي لم يوضع أصلا على السكة بشكل صحيح. مما يحتم علينا أولا البحث في مقومات التكامل والاندماج بين الدول المكونة لهذا الاتحاد، وعوامل الإخفاق والضعف الكامنة بينها، بغية استشراف مستقبل المغرب العربي داخل خريطة الدول العربية والعالم الإسلامي في ظل تزايد اهتمام القوى الكبرى بمنطقته، وفي ظل ما تعرفه المنطقة من تغيرات وتحولات.

إن مما لاشك فيه أن اتحاد المغرب العربي يتوافر له من المقومات المعنوية والأدبية، فضلا عن الموضوعية والمادية، الشيء الكثير (يُنظر تفصيلها في الأصل)؛ غير أنه في مقابل تلك المقومات توجد عقبات ومعوقات كثيرة، يمكن اعتبار معظمها عرضيا ومصطنعا ومن مخلفات الأنظمة الشمولية التي كانت تحكم دول هذا الاتحاد إلى ما قبل الثورات التي تجتاحه. ولكنّ بعضَها معوق حقيقي وجذري يصعب التغلب عليه إلا عن طريق العزم والإرادة الجازمة؛ ولعل مشكلة الصحراء الغربية هي النموذج الأبرز لهذه العقبات الكأداء.

وبتحليل معمق (يوجد في "الأصل") لمقومات الوحدة وعوامل الإخفاق هذه، على طريقة "السبر والتقسيم" المعروفة في علم الفقه الإسلامي، يمكننا– وبطريقة منهجية منطقية– استشراف وتحديد مستقبل هذا الاتحاد في ضوء التحولات التي تمر بها بلدانه.

وعموما فإنه يمكن رسم ثلاث سيناريوهات لاستشراف مستقبل اتحاد المغرب العربي انطلاقا من المعطيات المتوفرة:

1. سيناريو الجمود والمزيد من التجزئة:

ويرتبط هذا السيناريو باستمرار توتر العلاقات المغربية الجزائرية بسبب مشكلة الصحراء الغربية، حيث تَعتَبِر المغرب أنها قدمت أكبر تنازل بقبولها منح حكم ذاتي لسكان الصحراء الغربية، في الوقت الذي تنادي فيه "جبهة البولزاريو" مدعومة بالجزائر بضرورة انفصال الصحراء عن المغرب نهائيا، وحصولِها على استقلالها الكامل لتكون سادسة دول اتحاد المغرب العربي.

وليس من المستبعد في حال فشل جهود تسوية قضية الصحراء الغربية، أن تشهد منطقة المغرب العربي مزيدا من الانكشاف أمام استراتيجيات الدول الكبرى. بما في ذلك التدخل لحسم النزاع لصالح الطرف الذي يقدم أكبر قدر من التنازلات، ويكون تنازله متناغما مع المصالح الاستراتيجية للدول الكبرى.

2. سيناريو التنسيق والاندماج:

ويستمد أساسه من الأمل المتجدد مع الثورات الشعبية والسياسية في بعث الروح في مؤسسات المغرب العربي؛ وهو ما تجسد في تصريحات رئيس تونس الجديد الدكتور منصف المرزوقي، وزياراته لدول المغرب العربي، والبحث عن صيغ جديدة لإحياء مقومات تكتل إقليمي قوي قادر على مواجهة التحديات والاستجابة لتطلعات شعوب المنطقة.

ومما يعزز هذا الاحتمال:

- ما يلاحظ من أن أحداث الثورات الشعبية قد دفعت ببض التكتلات، وخصوصا جامعة الدول العربية، إلى الشعور بالحاجة إلى ضرورة أن يرقى التعاون والتكامل بينها إلى مستوى أعلى مما هو عليه حاليا. ونفس الحالة عرفها ويعرفها حاليا اتحاد مجلس التعاون الخليجي.
- صعود التيار الإسلامي في هذه البلدان وفي غيرها، وهو التيار المتشبع بالروح الإسلامية الداعية إلى التكامل؛ بل الوحدة والاندماج بين جميع الدول الإسلامية، استنادا إلى فكرة "الخلافة الراشدة الثانية" التي طالما استشعرها الإسلاميون وروجوا لها.

وهكذا فإنه يمكن للمتابع أن يلاحظ بسهولة، بل ويجزم بأنه قد يكون من النتائج الإيجابية للتحولات السياسية الجارية في جزء من العالم الإسلامي على الصعيد الخارجي، إحياء وبعث روح التكامل والتعاون استجابة لتطلعات الشعوب التي أنجزت التغيير، وإحياءً لمُثُل ظل الحكام المستبدون يكتمونها ويدوسون عليها.

3. سيناريو الوحدة المغاربية في أفق الوحدة العربية أو الاندماج مع العالم الإسلامي:

ليس هناك ما يؤشر على قرب إنجاز هذا السناريو في الوقت الراهن، لأنه لا توجد دول عربية متحدة، ولا عالم إسلامي متكامل، وبالتالي فإن هذا السيناريو سيكون بعيد المدى، إلا أن مشروعية طرحه في ظل الأمل المتجدد، وفي سياق الملاحظات الآنفة: يكون واردا.

الخلاصات والنتائج:

بعد هذا الاستعراض الموجز (والمفصل في أصل هذه الورقة) لموضوع التكتلات الإقليمية داخل منظمة التعاون ومستقبلها، يمكننا الخلوص على النتائج والتوصيات التالية:

1. إن وجود الدولة القطرية بحدودها ومفهومها التقليدي لم يعد له ما يبرره – على الأقل في المجال الاقتصادي– مقارنة بفترة الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، حيث كانت هذه الدول حديثة عهد بالاستقلال. وإن التحولات الراهنة التي تمر بها العديد من البلدان الإسلامية العربية وما أدت إيه من افتاح وانفراج سياسي واجتماعي: لتؤكد هذا المنحى. وهذا ما يحتم على الدول الإسلامية عموما، ودول المغرب العربي خصوصا الإسراع في مشروع الوحدة والاندماج.
2. ظاهرة التكتلات الإقليمية ظاهرة محمودة ومطلوبة وهي تدعم الهدف العام الذي من أجله أنشئت منظمة التعاون الإسلامي (الإطار الجامع)، وهو إشاعة روح التعاون وثقافةُ التكامل بين دولها ولو بنحو جزئي. ولذا ينبغي للمنظمة أن تنص في ميثاقها على فكرة التكتلات الإقليمية، وأن تشجعها في حدود ضوابط محددة.

3. جاءت التكتلات الإقليمية استجابة لوضع عالمي يتجه إلى التجمع والتكتل والمنافسة الاقتصادية والسياسية؛ ومع الثورات الشعبية الحالية، ومع التحولات التي تعرفها بعض البلدان الإسلامية: يُتوقع أن تتجه التكتلات الإقليمية إلى مزيد من التكتل والتعاون.
4. إن دول المغرب العربي بسلوكها الانفرادي لم ترق إلى مستوى تجمع إقليمي موحد قادر على فرض وجوده في الساحة الدولية، محاورا ومفاوضا ومؤثرا في مواجهة الطرف الغربي الموحد المتمثل في الاتحاد الأوروبي، والولايات المتحدة.
5. إن الضعف المؤسسي لاتحاد دول المغارب العربي، جعل الدول الخمس تتجه إلى التعاون مع الخارج أكثر من التنسيق في ما بينها، ولم يقم اتحاد المغرب العربي بالتنسيق فيما بينه وبين دول الاتحاد الأوروبي مجتمعا إلا في ما يعرف بحوار (5 + 5) حول بعض القضايا الأمنية المحدودة (الإرهاب، الهجرة السرية، الجريمة المنظمة).
6. إن قيام قطب مغاربي قوي اقتصاديا وسياسيا وثقافيا سيساعد – بحكم المكانة والجوار– إلى النفاذ والتأثير الإيجابي في العمق الإسلامي الإفريقي المجاور، وهو العمق الاستراتيجي الذي يُعتبر الاهتمام به حاليا ضعيفا.
7. إن التنافس الحاد بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي على تعزيز النفوذ في منطقة المغرب العربي، حيث تسعى الدبلوماسية الأمريكية إلى تحجيم دور أربا الذي يهدد الزعامة الأمريكية مستقبلا، ولعبة التوازن في المنطقة بين المغرب والجزائر التي تتمظهر بمشكلة النزاع على الصحراء الغربية: هي من أقوى العقبات التي تقف في وجه بناء التحاد مغاربي قوي.
8. إن أمل بناء اتحاد المغرب العربي من جديد على أسس متينة وقوية هو الاحتمال الأرجح في ضوء المؤهلات والمبررات المشروحة آنفا، وهو ما سيفتح المجال أمام مزيد من التكتل والاندماج بين بقية التكتلات الإقليمية الإسلامية، أسوة به، مما يؤكد بدوره احتمال مزيد من التآزر والتكامل في الإطار الجامع للدول الإسلامية، الأمر الذي يبعث على التنبؤ بأن "العملاق النائم" – كما يسميه بعض الاستراتيجيين– (وهو العالم الإسلامي) قاب قوسين أو أدنى من أن ينهض ويأخذ مكانه الريادي.

وبالله وحده التوفيق